

المحاضرة (١٣)

ميادين الشعر والنقد

جاب عبد الرحمن شكري آفاق الشعر والنقد، وبين فيها مواقف، وسجل آراءه وهي لا تختلف في شيء عما صدر عن زميله العقاد والمازني.

وقد عكس هذا الائتلاف، الوحدة الفكرية للجماعة، وهي وحدة متماسكة قلما وجدنا لها مثيلاً في تاريخنا الأدبي الحديث.

غير أن المعروف عن شاعرنا شهرته في ميدان الشعر أكثر من عنايته بميدان النقد وربما كان هذا سبباً في أن يقدم الدارسون هذا الشاعر على غيره في مجال الشعر في حين يجعلون العقاد ناقد الجماعة دون منازع.

آفاق الشعر:

تستطيع الدواوين الشبعة التي تركها عبد الرحمن شكري أن تفصح عن شعره الذين طبع (بطابع حزين لا يستمد فيه من شعر المنزع الرومانسي فحسب، بل يستمد فيه من حقائق حياته وحياة الشعب المصري من حوله... وأكثر أشعاره في دواوينه من هذا الضرب القائم الحزين كما يقول الدكتور شوقي ضيف. وهذا الضرب القائم الحزين هو الذي حدد موضوع القصيدة لديه، بالوقوف على النفس الإنسانية والحياة، وانبساط للذات، وهو الذي جعله يلهج بذكر الموت ويتغنى بالطبيعة وهو الذي وجه موقفه إلى الشك والتمرد، ولونها بروح من التشاؤم.

وهذه الموضوعات يمكن ان تقع تحت عنوان واحد هو: الشعر التأملي والنفسي أما الموضوع الآخر الذي استأثر بديوانه، فهو شعره العاطفي الذي تدرج تحته قصائد الحب التي تغلفها غلالة رومانسية تكاد تمتد إلى معظم شعره.

شعره التأملي والنفسي:

يقول محمد مندور عن شكري وشعره (أخذ شكري يقصر تفكيره على نفسه وكلما ازداد في هذا السبيل، أخذ شعره يزداد اصطبغاً بصبغة التأمل والاستبطان الذاتي وحيرة التساؤل والشك... ولعلنا نستطيع أن نتابع هذا التطور الرائع المدمر في أجزاء ديوانه المتتابعة).

وقصيدته (إلى المجهول) خير ما يعين الدارس على اكتشاف فضوله التأملي، وولعه بالتعرف على المجهول من أمور الحياة والطبيعة والنفس والكون والشغف باستطلاع وكشفه، كما يقول في مقدمته لهذه القصيدة التي اوردنا بعض أبياتها في الصفحات الماضية:

فأبسط يديك وأطلق من أغانيه
قد استوى فيك قاصيه ودانيه
ادحو بها الكون تبدو لي خوافيه
ولا السموم إلى حق بمكروه

كأن روحي عود أنت تحكمه
وأنت في الكون من قاص ومقرب
بلل ليت لي فكرة كالكون واسعة
ليس الظموح إلى المجهول من سفه

أن لم أنل منه اروى الغليل به
قد يحمد المرء ماء ليس يروييه
هيات ما كشفت لي الحق خاطرة
ولم يجب لي سؤالا إلا ما أناديه

وعلى هذه الشاكلة راح عبد الرحمن شكري يخاطب المجهول، ويحاول التعرف على مجالي الكون، ويجهد نفسه في اكتشاف أعماق النفس، ولكنه يرتد خائبا مهيبض الجناح. وأغلب الظن أن الذي دفع شاعرنا في محاولة استكناه الكون ومعرفة أسرارته هو قلقه الفكري وتمرده على كل ما يجده في المجتمع البشري من صور الفساد والتهرؤ الذي أصابه منذ منتصف القرن التاسع عشر، كذلك ما كان يجز في أعماق نفسه من شعور بالغبن والظلم، وعدم تمكنه من تحقيق طموحاته وتأكيد تطلعاته في كل مجالات الحياة الادبية والاجتماعية. والحق ان شكري قد استجاب استجابة شديدة لهواجسه النفسية. إذ حظيت النفس الانسانية بقدر وافر من تحليلاته ومواقفه وهو أن يتمثل النفس الانسانية يستبطن ذاته ويغوص في أعماقها متسائلاً مستفسراً تارة، وحائراً تائهاً تارة أخرى حتى ينتهي به ذلك إلى الغرض في عذاب نفسي يثير قلقه وآلامه وأحزانه:

يقول في قصيدة (المجرم):

يرى الناس أن النوم أم رحيمة
يل على الحلم اسياف نعمة
فيا بلسم الاحزان اصبحت عونها
ولكن نوم الجارمين عقاب
فاحلام نومي كالجحيم عذاب
علي فبطل ما وعدت كذاب

وفي قصيدته (فن الحياة) يرى الحياة شيئاً جميلاً. فيما يجمع بين الخير والشر ويوضح موقفه إزاء كل منهما، إذ يرى أن طبيعة كل منها لا تتغير، وأن الإنسان مهما حاول ذلك فإنه لا يمتلك القدرة على التغيير.

أما عن كنه الحياة فإن الشاعر يرى أن (الحياة سر كبير وهذا السر هو سبب جمالها، وسر تمسكنا بها، فهي عبء ولغز، ومع ذلك فكلنا يبحث عن سر الحياة : وسر الحياة عنده هو خبريته بالناس ومعرفته باحوالهم وتقلبات أمزجتهم:

قد خبرت الانام يا قلب هل تنتشد سراً من بعد ذلك وسؤالا.

ويرى أن سر جمال الحياة هي كونها تستغلق على أفهامنا:

وحياة بالسر أحجى حياة
خدعة العيش ان يلوح بالسر
هي احلى مما تراه وأعلى
إذا عاف عايشوه وملا

وكثيراً ما ينادى شاعرنا عن البحث عن سر الحياة، لأنه لا طائل من وراء البحث، ولذلك

فهو قانع بوقعها:

عـبـ لـغـز الحـيـاة يـا قـلـب أفـدح
سـرـها أنـك السـعـيد إذا لـم
عـبـاً يـحـنـى عـلـيـك ثـقـيـلا
تـدـر أن لـا سـر لـديـها يـتـجـلى

والشاعر يرى أن جمال الحياة في تركها دون تعقيد، كما يرى ان السعيد من الناس هو

من يأخذ الحياة بالملاينة فيقول:

ويعيد الحياة فرضاً وحسناً
ومتاعاً من يأخذ العيش سهلاً

وعلى الرغم من تجهم شكري إزاء الحياة، ومن شعوره بالملل والسأم منها، فقد تغنى بالأمل وتعلق بأجنحته، وفتح له ذراعيه، وطالما استقبله بشيء من الرضى والقناعة وربما يصل موقفه من الأمل في الحياة أحياناً، إلى مرحلة فلسف فيها ابعاده، ومضامينه ودوره في حياة الانسان، فهو يوضح دوره في تقدم الانسانية، وفي إحلال السلام وفي بناء الحضارة، ويبين أثره في إعمام الخير وتحقيق الحياة المثلى. بل انه أحياناً يرى في الأمل رحمة الله إلى الناس. والأمل عنده أساس الفضائل والدافع إلى سعي الانسان. وهو يمنح الحياة قوة والنفس طمأنينة وجمال الحياة يتوقف عنده على مقدار تعلق الناس بالأمل.

وتتضح هذه المعاني في قصيدته (بهاء الحياة) التي يقول فيها:

كـم أسـيـنا عـلـى زوال بهاء
ووددنا هـ خـالـداً لـيـس يـفـنى
فـاسـيـنا إذ البـنـاء طـرـيـق السـن
لـذة العـيـش فـي التـقـلب فـي العـيـش
ابـداً يـبـسـط الزـمـان ويـطـوى
بـهـجـة العـيـش فـي زوال بهاء
كـان أنـسـاً وكمـان لـلـنـفـس أهـلا
فـتـرى الزـهـر فـي الحـداق حـولـا
والعـيـش يـتـبـع الـيـوم لـيـلا
وئيـل الجـديـد حـلـواً مـحـلى
مـلـحاً لا تـدوم إلا تـسـلى
مـلأ النـفـس طـرفـه ثم ولى

وتجري القصيدة بكاملها في هذا الرافد من الأفكار التي تتم عن استطلاع لأسرار الحياة

ومواقف الناس، وما في هذه الحياة من طرائف وتناقض، وما يجابه به الانسان من صفاء حيناً

وكدر حيناً آخر وللشاعر أمام هذا التناقض مواقف، ولكنها لا تثبت على حال، بسبب ما ينتابه

من قلق وحيرة كما أنها تتوقف على حالته النفسية، وقت أن يعبر عن التجربة.

كانت تأملاته (في الأولوية وعظمتها والكون وخالقه، والبعث وكنهه، والخلود وطبيعته، وغير ذلك من شؤون العقيدة، مثاراً للجدل والإثارة والشكوك حول عقيدة شكري) وتثير قصيدته المشهورة (حلم بالبعث) هذا الجدل الذي يقول فيه:

مرت علي قرون لست أحفظها
حتى بعثت علي نفح الملائك في
وقام حولي من الأموات زعفة
فذاك يبحث عن عين له فقدت
وذاك يمشي علي رجل بلا قدم
ورب غاصب رأس ليس صاحبه
جاءت ملائكته باللحم تعرضه
رفدت مستشعراً نوماً لأوهمهم
فأعلموني وقالوا قم ولا كسل
استغفر الله من لغو ومن عبث

عداً كان مر بي الآباء والقدم
ابواقهم وتنادات تكلم الـرمم
هوجاء كالليل جم لجه عرم
وتلك تعوزها الاصداغ واللمم
وذاك غضبان لا ساق ولا قدم
وصاحب الرأس يبكيه ويختصم
ليلبس اللحم من أضلاعنا الوضم
أني عن البعث بي نوم وبني صمم
ينجي من البعث أن الله محنتكم
ومن جناية ما يأتي به الكلم

والقصيدة لوحة فنية دقيقة تكتسب المهارة في ما يصوره صاحبها في يوم البعث، بل أنها صورة دقيقة لحالته النفسية الممزقة القلقة، التي أضناها التناحر في الحياة، والفساد في القيم. والشاعر يضي على العالم الآخر ما يجده في عالمه الفاسد المتهرئ؛ فالهياكل البشرية في حالة من الفوضى التي يبدو فيها الناس يظلم بعضهم بعضاً، ويقتل احدهم الآخر ويسرق الاخ عين اخيه ويعتدي على حقوقه.

وفي القصيدة يسفر شكري في البعث بقوله:

رفدت مستشعراً نوماً لأوهمهم
أني عن البعث بي نوم وبني صمم

ولكنه يحس بعد ذلك بالذنب، فيعود إلى الاستغفار ويعلن توبته وإيمانه.

هذا الفكر المضطرب، هو سمة من سمات التأمل النفسي، الذي يكثر في شعر شكري كثرة عجيبة، حتى صار يمثل فيه ظاهرة من أشد الظواهر التي أطلق عليها محمد مندور (الاستبطان الذاتي).

وقد انتهى هذا التأمل الاجتماعي، إلى العديد من الظواهر الموضوعية التي تمثلت بالبكاء والشكوى والهناف بالموت.

فقد شكى من هموم الحياة كتأثره في سلك الترقية الوظيفية، وانصراف الناس عن الالتفاف إلى عبقريته، وظهر ذلك في مجموعة من القصائد ، مثل قصيدة (شكوى) وقصيدة

(شقوة العيش) وقصيدة (المموه) وقصيدة (سم الخسه) وغيرها. ويكى في قصائده على حب ذاو، في مثل قصيدته (الهوى حلم العمى) وقصيدة (ملك القلوب) وقصيدة (التفاهم في الحب).
ومما يتصل بهواجسه النفسية هتافه الدائم للموت واللهج بذكره وتصوير جثمانه أو جثمان حبيبته وقد رتع الدود بين جنباته.

ومن هواجس قلقه النفسي، هروبه من الحياة، وخصومه للناس، وشعوره بظلمهم وحسدهم له، مما أستوجب قراره منهم والبعد عنهم والشعور بالشقاء في العيش معهم.

فأصبحت أخشى الناس في كل خطرة
كأني بين الناس من أهل عالم
فمالي عطف لديهم ورحمة
يعيبون نفسي ضلة وجهالة
فيا شقوة الأيام هل منك مهرب
وأفارق من داعي المودة أن دعا
جديد غريب أخطأ الأهل والحمى
ولا لي فيهم من إخاء ولا هوى
ويرمونني بالسوء والمكر وانحنى
فاعدو وهل ينجو من النحس من عدا؟

ومواقف شاعرنا من المجتمع تجرنا إلى القول: أنه قد تأثر بمواقف ابن الرومي وأبي العلاء؛ فقد قرأ شعرهما قراءة معمعة، وتأثر بمواقفهما من الناس ومن الحياة. وقد كان كل منهما ساخطاً على الناس، قرفاً من حياته، حائراً إزاء ما يجري في الحياة.
وربما التقى ابن الرومي في طول نفسه في القصيدة، وفي تحقيق وحدتها العضوية.
ومن روافد شعره التألمي، وصف الطبيعة بما فيها من سحر وحيوية وجمال ورقة، وقد تأمل أسرارها الدقيقة وتأثيرها في النفس الإنسانية.

والذي يتتبع أسماء دواوينه وعناوين قصائده، يتأكد له صلة الشاعر بمظاهر الطبيعة وربما كان ديوانه الأول (ضوء الفجر) دليلاً على ما لها في نفسه من تأثر في صدق أحاسيسه ورقة مشاعره، وعمق تأملاته، بل أن تأثير الطبيعة، قد امتد لديه إلى الصورة الشعرية وعناصرها المؤلفة لها من لون وحركة، وإلى اللغة التي عني بصياغتها وأسلوبها والفاظها التي جاءت رقتها موازية لرقة الطبيعة وجمالها وسحرها.

ونتيجة لهذه العناية فقد وفر لها من العنصر الموسيقي ما يؤكد قدرته الفائقة في مجال الوصف ولعل هذه الابيات التي يصف فيها الشمس التي تعانق إحساسه الرقيق، نستطيع أن تنهض بهذه الصورة التي قدمنا والتي يقول فقيها:

وكأن الشمس تجلبي
أقبلت في الأفق تسعى
منظر يفعل فعل العود
غير أن الليل أدرى
ففي خماس من لهيب
مثل أقبال الحبيب
بالقالب الطروب
باحاديث القلوب

والعــادي المهيب
بـدل الجـنح المريب

شـملة العاشق والسارق
لـبس الأفق ضياء

على أن ما يلحظه من تفاؤل واضح في قصائد الوصف للطبيعة، والتي نجدها في ديوانه الاول سرعان ما يختفي ليحل محله تشاؤم ملحوظ، ينتهي في دواوينه الأخرى إلى حد الإفراط وقصيدة (الليل) التي يراها أحد الدارسين معلمة على الطريق الشعري لشكري، تمثل مع عشرات من أمثالها، هذا الاتجاه الرومانتيكي المتشائم.

والواقع أن شكري لم يترك مظهراً من مظاهر الطبيعة، ألا وأجرى فيه قلامه وأضفى عليه من أحاسيسه ومشاعره، ما جعله من أكثر الشعراء ولعاً بوصف الطبيعة، فقد وصف البحر وأمواجه المتلاطمة والرياح وعواصفها الهائجة، والسماء والآلى نجومها، ووصف الأرض وما يموج بها من ورود ورياحين، وما يفوح فيها من روائح وعطور.

وفي كل هذا يكشف عن الصلة بين بهجة الطبيعة، وفرح نفسه وبين غضبها وغضبه. والواقع أن ما من شاعر حديث جعل من الطبيعة ومظاهرها مجالاً لتجسيد الأحاسيس والمشاعر كعبد الرحمن شكري، خصوصاً مشاعره التي تعبر عن الألم والأسى، وتعكس نظرتة المتشائمة من الحياة. وقصيدته (الأزاهير السود) التي تغنى فيها شكلاً ومضموناً، تستطيع أن تعكس هذا الاتجاه المتشائم الذي يتخذ الزهرة الجميلة دليلاً لتجسيد كآبته القاتمة، وتعكس أفكاره السالبة تجاه الكون والحياة والمجتمع. ويقول في أولها:

زهر اليأس وأزهار الأسى
زهرة حمراء من زهرة الهوى

قد جنينا من أزاهير الردى
زهرة سوداء لا تعد لها

وفي القصيدة (يعبر شكري عن لذات الحياة التي يعبها الألم والندم والحسرة. وهو باختياره الزهرة تعبيراً عن الحياة تم صبغها باللون الأسود تعبيراً عن الألم، رائد من رواد الفن والتصوير في هذين المضمارين معاً... والقصيدة في مجموعها قاتمة شديدة القتامة تتزاحم فيها ألوان السواد والحمرة القانية والبكاء والألم وزهر النقم والضجر ونبت الهموم والضجر والسهاد والسهر والعيش الذي أصبح لا يمحي بالشكوى والبكاء) وفي قصائد شكري في وصف الطبيعة، تأكيد على فصول السنة، وخاصة فصل الخريف، وتعد قصيدة (فصول) من خير قصائده التي يتحدث فيها عن مظاهر الطبيعة في الربيع والخريف والشتاء والصيف. ويدمج هذه المظاهر بالنفس الإنسانية.

وشكري في وصفه للطبيعة قدم لنا لوحات فنية أخاذة تندمج فيها مشاعره، وما ينتابها من خوف وفرح، وعواطف وما يتجسد فيها من حب إنساني خالد.

ومما له صلة باتجاهه التألمي، قصائده التي لهج فيها بالموت، متأثراً بالشعراء الرومانتيكيين الذين احبوا الموت وتأمّلوه، وطربوا لمشاهدة القبور. وربما كان هذا الاتجاه قد رافق نفسه لما ينتابها من شعور بالملال من الحياة، حتى وصل إلى حد طلب الموت، تخلصاً من عذاب هذا الاحساس، بل أنه وجد في الموت راحة.

وأكبر الظن انه تأثر ايضاً بأبي العلاء وما أثاره في شعره من حيرة وتمزق وتفكير في مشكلة الموت والبعث.

ومما يؤكد هذا، ان شكري قد غاض في أعماق الحقائق الانسانية، شاكاً ومتمرداً ومستسلماً، ضائعاً بين الإيمان والشك مما دفع أحد الدارسين لشعره لأن يضعه في مذهب (اللاادارية) والحق أن وضع شاعرنا النفسي، ومواقفه في الحياة، وإحساسه الحاد المفرط، وتأثره بالشعراء الرومانتيكيين وبأبي العلاء وابن الرومي. كل هذه العوامل قد دفعت شاعرنا لأن يقف أمام الموت وقفة الحائر المتأمل.

وفي قصيدته (ضوء القمر على القبور) التي يقدم لها بقوله (إذا رأى الإنسان ضوء القمر على القبور، خشع من جلاله ذلك المنظر، الذي يحكي فناء الجمال في الموت، وفناء الموت في الجمال) وفي هذه المقدمة يتضح موقف الشاعر من الموت.

وقد ارتبط بذكر الموت في شعره، الحب والحبيبة، وضوء القمر ويوم الحساب، والتوبة والرحمة والخوف. والعجيب في قصائده للموت، سعة خياله. وبراعته في رسم صور غريبة للموتى، لتخيله أن الموتى يتكلمون ، وأن لهم أصواتاً ترن في آذانه حين يسمعها، يقول في قصيدة (صوت الموتى).

خريـر المياـه الجاريـات على الصلـد	ألا أن للأموات صوت كأنه
وطوراً كأصداء الطبول على بعد	ويحكي حفيف الغصن عند خفوتها
ويعوي عواء الذئب في المهمة القفر	يئن أنين الريح عند خفوتها
صراخ العباب القمر في لجج البحر	ويصرخ أحياناً فيحكي صراخه
وطوراً له صوت كحشرة الصدر	يئن أنين الليل ان هداً الورى

وهكذا يرتبط الموت بخريـر المياـه وحفيف الأغصان وأصداء الطبول وعويل الثكلى وأنين الريح وعواء الذئب وصراخ البحر وأنين الليل.

ولاشك في أن الأبيات غنية بالتشبيهات والصور الناضجة، التي تدل على خياله البارع. ويلاحظ أن الموت، لديه قد ارتبط بمظاهر الطبيعة، كالريح والبحر والأغصان والحيوان.

وقد حقق فيه مسألة تبادل الحواس التي نادى بها الرمزيون لشعرهم وهي أن يعبر عن المحسوس باللامحسوس وبالعكس. فقد تخيل الشاعر أن الليل والفجر أنيناً وأن للفجر صراخاً، وهذا يوسع صورته التخيلية.

وفي قصائد الموت يربط شكري بين الحب وبين الموت برباط مقدس، ويبرز لنا تناقضات الحياة التي تجمع بين النقيضين، لكنه لا يلبث أن يستسلم لحقيقة الحياة، التي ينهي فيها الحب إلى الموت. وهو في هذا لا يقف موقف المتأمل، بل يصل إلى حد فلسفة الحياة والموت.

وقد جمعت قصيدة (الموت) خلاصة فلسفته في الموت. وهي طويلة يبلغ عدد أبياتها أربعة وسبعين بيتاً، وفيها يجسد رأيه الصريح في الموت حين عده منصفاً للمظلومين فقال:

ويا منصف المظلوم من كل ظالم ويا مهرب الملهوف يخشى الاعاديا

كما عبر عن حبه له، وهو حب العاشق للمعشوق.

أحبك حب الصعب وجهه عشيقه لينقع ثغراً منك صديان ضاميا

وفي هذه القصيدة لا يخشى شاعرنا بالموت، ويعقد فيها مقارنة بين الحياة وما فيها من اوزار وعدوات وشقاء، وبين الموت وام فيه من هدوء وعفاف. كما يفضل ظلمة القبر على ظلمة العيش، ويرى ان الأموات أسعد حالاً وأكثر سعادة من الأحياء.

وفي هذه القصيدة قوام رأيه وفلسفته في الموت (لما تحتوي عليه من حكم وأمثال في الحياة والموت والنفس الانسانية وطباعها وغرائزها، كما أن التفكير المنطقي والعمق الفلسفي، يكونان هيكلها الكلي، ومضامينها تعبر عن نظرة تشاؤمية للحياة، وتفضل الموت عليها، ثم تمسك بأهداب الحياة مرة اخرى بطريق بيان ما فيها من لذائذ ومحاسن).

وتقترب قصيدة (خطرات في الحياة والموت) من هذه القصيدة.

وللشاعر قصائد كثيرة في مسألة الموت، تظهر فيها فلسفته وأراؤه ومواقفه تجاه الحياة والموت والكون والطبيعة والناس.

وبهذه المعالجة لمسألة الموت تظهر أفكار الشاعر العميقة وأن كانت بعيدة عن الواقع. كما انها تبدو مرتبكة قلقية، أو نراه أحياناً يطلب الموت ويقدمه ويستعذبه هروباً من الحياة. بينما يتوسل أحياناً أخرى بالحياة ويتلذذ بما فيها.

نجد في قصائد الموت ظاهرة التقابل في الأفكار (إذ تقابل دائماً بين حسن المرأة والموت، وبين الحياة والموت، وبين كفاح الناس وصراعها اليومي من أجل السبق والظفر وبين الموت. وبين احلامه وأمانيه وبين الموت الذي يترصص به ويمنعه من تحقيقها وبين ضوء القمر

الذي يمثل فيض الحياة وجمالها، وبين القبور التي تمثل وهبة الموت وجلاله، هو يقارن دائماً بين نبض الحياة في جمالها ومظاهرها الطبيعية وحركتها وبين سكون الموت وصمته المخيف، ثم هو بعد ذلك يتمنى الموت ليستريح راحة أبدية ولكنه حين يشب إلى ما بعد الموت، ليصف الوحشة والظلمة والانفراد، نراه متحيراً بين حب الحياة وطلب الموت، ثم يلي حب الحياة، ويتمسك بها رغم شقوتها، ومظاهر النبض والضعف فيها).

وهذا التقابل الذي ينتهي إلى تناقض فكري، سببه في رأينا ، قلقه الاجتماعي وتأزمه النفسي، الذي طالما عصف بمشاعره، وانتهى به في آخر الأمر إلى مرض عصبي لازمة حتى نهاية عمره.

وعلى أية حال، فإن هذا التيار التأملي النفساني الذي أخذ شكري يقصر فيه تفكيره على نفسه، قد انتهى به إلى مزيد من الحيرة والشك، في القيم الأخلاقية وفي الناس وفي نفسه وفي الذات الإلهية أحياناً وفي العالم الآخر. وهذا يتضح في دواوينه الأخيره.

المصادر :

١- الأدب العربي المعاصر في مصر

٢- الشعر المصري بعد شوقي

٣- جماعة الديوان

٤- عبد الرحمن شكري الانس داود